معبر رفح بین مطرقة إسرائیل وسندان حماس: لماذا ترفض مصر أن تكون شاهد زور على التهجیر؟

20 يوليو <u>2</u>025

سياسة وتاريخ

7 دقيقة قراءة

معبر رفح بين مطرقة إسرائيل وسندان حماس: لماذا ترفض مصر أن تكون شاهد زور على التهجير؟



ثمة في زحمة الدم والدمار والدموع التي تلف غزة اليوم، ما يـدفع بعـض الأصـوات – بعضها حسـن النيـة وأكثرهـا سـيئُها – إلـى رمـي كـرة اللهب في حضن مصر. وكأن القاهرة، بفتحها معبراً سحرياً، قادرة على محو خمسة وسبعين عاماً من احتلالٍ قاسٍ، أو كأنها مسؤولة عن حربٍ لم تبدأها، ولم تُستشر في توقيتها، ولم تُمنح حق الاعتراض على كوارثها.

والحـال أن الحقيقـة السـيادية، التـي يجـب أن تُقال ولو جف الحلق من تكرارها، أن مصر ليست طرفاً في هذا الجنون الدائر؛ بل هي الرصيف الذي يُفرغ عليه الغضب، والبطن المطلوب منه ألا يصــرخ وهــو يُضــرب مــن جهتيــن: مطرقــة الاحتلال الإسـرائيلي المبـاشر، وسـندان حمـاس

التى حولت غزة إلى ساحة لعبة الموت والحياة. بيد أن من يتحدث عن "فتح مصر لمعبر رفح" دون أن يذكر أن المعبر من الجهة الفلسطينية تحت الاحتلال الإسرائيلى منذ أيار (مايو) 2024، إما جاهل بالجغرافيا أو متواطئ في تغطية الجريمة. فكيف يُطلب من مصر فتح بوابة لا یقـف خلفهـا شریـك فلسـطینی بـل دبابـة صهيونية؟ وهـل يُعقـل أن يُلام مـن يرفـض أن يكون شاهد زور على شرعنة الاحتلال، أو ممراً يُسهل التطهير العرقى تحت مسمى "الإغاثة الانسانية"؟

ذاك أن مصــر، منـــذ بدايـــة هـــذه المذبحــة المستمرة، أبقت حدودها مفتوحة من ناحيتها، أنشأت مراكـز لوجســتية ضخمــة فــي العريــش، استقبلت آلاف الأطنان من المساعدات، وعالجت الجرحى في مستشفياتها، وأصرت على ألا يخرج أجنبي واحد من غزة إلا إذا دخلت شاحنة إغاثة لأهلها. أليسـت هـذه أخلاق الكبـار فـي زمـن انعدام الأخلاق؟

لكـن إسـرائيل – وهنـا مربـط الفـرس – حـولت التجويع إلى سلاح حرب معلن. كل شاحنة إغاثة تُخضع لتفتيش مُذل، يُعاد تحميلها من رفح إلى نيتسانا ثم إلى كرم أبو سالم ثم تعود إلى رفح، فـي دوامـة بيروقراطيـة سـخيفة لا هـدف لهـا سـوى إذلال الخبـز قبـل أن يصــل إلــى الجـائع، وتعفين الدواء قبل أن يُضمد الجرح.

يلوح في الأفق سؤال آخر لا يقل إيلاماً: ماذا عن دور حماس فى هذه المأساة؟ ثمة حقيقة مُرة لا بد أن تُقال، وإن عضت على اللسان: عملية
"طوفان الأقصى" لم تكن مجرد عملاً عسكرياً
غير محسوباً، بل مغامرة كارثية في التوقيت
والنتائج. فحركة حماس، دون تنسيق مع أحد –
لا مع السلطة الفلسطينية ولا مع الدول العربية
– فتحت أبواب جهنم على غزة، ظناً منها أن
مباغتة العدو ستكسر المعادلات. لكن ما حدث
أنها كسرت ظهر شعبها قبل أن تخـدش جلـد
المحتل.

غزة دفعت ثمناً يفوق كل خيال: أكثر من ٢٠٠ ألف بين شهيد وجريح، دمار شبه كامل للبنية التحتية، مجاعة محققة، نزوح جماعي، وموت بطيء تحت الأنقاض والحصار. وكل ذلك من أجل ماذا؟ من أجـــل عمليــــة "رمزيــــة" لـــم تُحـــرر شـــبراً مـــن الأرض،

لكنها حـولت حيـاة مليـوني إنسـان إلـى جحيـم مسـتمر؛ جحيـم لا تُطفئـه شعــارات المقاومــة المجيدة ولا خطب الصمود الأسطورى.

أغلب الظن أن الذين يطالبون مصر بأن تفتح حــدودها دون ضوابــط، لا يفهمــون أبجــديات الجغرافيا السياسية ولا يقرؤون دروس التاريخ القريب. سيناء ليست أرضاً فارغة تنتظر اللاجئين، ولا فندقاً خمس نجوم للنازحين. إنها أرض مصرية ذات سيادة، خاضت مصر من أجل تحريرها حروباً مريرة، ودفعت ثمن استعادتها دماً غالياً. ومصر التى حاربت الإرهاب في شمال سيناء لعقد كامل، وخسرت المئات من جنودها وضباطها، لن تفتح ثغرة في جدارها الأمني لتتسرب منها الجماعات المتطرفة أو الخلايا النائمة. والحال أن من يتحدث عن "واجب مصر الإنساني" يتناسى أن الواجب الأكبر هو منع تكرار نكبة 1948. فلو خـرج أهـل غـزة إلـى سـيناء – ولـو "مؤقتاً" كما يزعم البعض – فلـن يعـودوا أبـداً. التاريخ علمنا أن "المؤقت" في قاموس إسرائيل يعنــي "الأبــدي"، وأن "الإغاثــة الإنسانيــة" قــد تتحول إلى غطاء لأكبر عملية تطهير عرقي في القرن الحادى والعشرين.

راهناً، تقـف مصـر أمـام معادلـة شيطانيـة: إن فتحـت الحـدود بلا قيـود اتُهمـت بـالتواطؤ فـي التهجيـر، وإن أبقتها مضبوطـة اتُهمـت بالتخـاذل عن نصرة الأشقاء. لكن القاهرة اختارت الطريق الأصعب: الحفاظ على وجود الفلسطينيين في أرضهـم مهمـا كـان الثمـن، ومنـع تحقيـق الحـلـم لعل الأكثر إيلاماً في هذا المشهد المأساوي هو أن البعض يحاول تحويل مصر إلى كبش فحاء، بـدلاً مـن تـوجيه السـهام إلـى القاتـل الحقيقـي. إسـرائيل تقصـف وتجـوع وتحاصـر، وحماس تتاجر بدماء شعبها على مذبح أوهام النصر الوهمي، بينما يُطلب من مصر أن تكون المنقـذ الـذي يحـل الأزمـة بعصـا سـحريـة. وكـأن مفاتيح السلام والحرب في يد القاهرة، لا في يد من يملك السلاح والقرار والأرض.

إذ نكتـب هــذا، لا ننســـ الألــم الفلســطيني المشروع، ولا نتجاهل صرخات الأمهات الثكالى وأنين الأطفال الجوعى. لكننا نرفض أن يتحول هـذا الألـم إلـى سلاح يُـوجه ضـد الشقيـق بـدل العـدو، وأن تُستغل المأسـاة لتصـفية حسابـات سياسـية رخيصـة أو لتمريـر أجنـدات مشبوهـة تخــدم – فــي نهايــة المطــاف – المشــروع الصـهيوني الـذي يحلـم بتفريـغ فلسـطين مـن أهلها.

مصر، إذ تحرس حدودها بعناية، لا تحمي أمنها القومي فحسب؛ بل تحمي القضية الفلسطينية مــــن الانتحــــار الــــديموغرافي، وتحفــــظ للفلسـطينيين حقهم فـي البقـاء علـى أرضهم رغم كل محاولات اقتلاعهم. وهي إذ تصر على أن تكــون المساعــدات للفلســطينيين داخــل فلسـطين، لا خارجها، إنمـا تؤكـد أن الحـل ليـس

في الهروب من الجلاد، بل في كسر سوطه وتحطيم سجنه.

أما الذين يريدون من مصر أن تلعب دور البطل الأسطوري الـذي يحـل كـل المعضلات بضربـة واحــدة، فليتــذكروا أن مصــر دولــة لهــا حــدود وإمكانيات ومسؤوليات، وليست منظمة إغاثة دولية أو ملجأ مفتوحاً لكل كوارث المنطقة. ومن أراد أن ينصــر غــزة حقــاً، فليضغــط علـــى مــن يحاصـرها ويقصـفها، لا علـى مـن يحـاول – رغـم كل الصعاب – أن يُبقي شعلة الأمل مضيئة في ليلها الطويل.

وإذا كانت إسـرائيل تمـارس القتـل بالرصـاص والقنابـل، وحمــاس تمــارس القتــل بــالقرارات الانتحاريــة والحسابــات الخاطئــة، فــإن مصــر – وحدها في هذا المشهد الدامي – تحاول أن تمارس فـن البقـاء؛ بقـاء الفلسـطينيين فـي أرضهم، وبقـاء القضيـة حيـة رغـم كـل محـاولات دفنهـا تحــت الأنقــاض. فــدعوها تُــدير هــذه المعركــة المعقــدة بحكمتهـا، لا بعواطــف مــن يصرخون من بعيد ولا يدفعون ثمن الصراخ.